

العجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إلا مستأخر الصدر^(١) ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ،
مسنداً قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ،
وكلاً سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل
إسناد القفا^(٢)

وهوداً عما عَطَّرَ عبق ، ثم لا يمَسُّ إلا عطراً واحداً لا يغيره ،
يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبي ، وأنه يبق للأيام وأحبتها
وله فلسفة من حسه لا من عقله ، وللفلسفة قواعد وأصول
ثابتة لا تتغير ؛ ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقى ،
ومن بعضها الصلاة أيضاً . وكل تلك هي عنده قواعد لحفظ
الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هي لم تتغير
اتصل الشباب فيها واطرد في الروح ، فتكون من ذلك قوة
تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى
وهو يزيد في حكمة الصلاة فكرةً رياضيةً عملية لم ينتبه إليها
أحد ، هي رياضة البطن والأمعاء بالكوع والسجود والقيام ؛
ويقول إن ثروة الصلاة تكثرت في مندوقين : أحدهما الروح لا
بمد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت . ويرى أن الإسلام لم
يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصب في
الروح كل يوم

قال المحدث : وبينما نحن جالسان مرتبنا شيخاً أجبف مهزولاً
موهوناً في جسمه ، يدلف متقاصراً الخطو كأن حمل السنين
على ظهره ، مُرْعَشٌ من الكبر ، مستقدم الصدر منحن يتوكأ
على عصا ، ويدل أنحناؤه على أن عمره قد اعوج أيضاً . وهو يبدو
في ضعفه وهزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا إنساناً ، وكأنها
ما خيطت إلا لتمسك عظاماً على عظم . . .

قال : خلعت اليه (م) ثم صاح : رينا ، رينا . فالتفت
العجوز ، وما كاد بأخذنا بصره حتى انتقل إلينا وأقبل ضاحكاً
يقول : أوه ريت ، ريت .

وبعض (م) فاحتضنه وتلازما طويلاً ، وجعل رأسها

(١) يقال مستقدم الصدر اللهم الحني الظهر ، فأخذنا منها متأخر
الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدوداً ، فيكون أعلاه إلى الوراء
(٢) هذه حقيقة رياضية ، ولها أقوى الأثر في شد الجسم واتصاف
القامة إذا اعتادها الإنسان . وللمرأة ما لوطوق الحقيقة (الباقية)

قال محدثي : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ،
وكانت ماثبهما^(١) ذلك المكان القائم على شاطئ البحر في
اسكندرية في جهة كذا . وهما صديقان كانا في صدر أيامهما
— حين كانت لهما أيام ... — رجلي حكومة يعملان في ديوان
واحد ، وكانا في عيشهما أحوى جده وهزل وفضائل ورفائل ،
يحتتمان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلة أحدهما
من الآخر ؛ وكان بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من
الابتسامة ، والسمعة من السمعة

ولبنا كذلك ما شاء الله ثم تبددا ، وأخذت لهما الآفاقُ
كدأب (الموظفين) ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهم ترفه
أرض وتخفزه أخرى ، وكان «الموظف» من تفسير قوله تعالى :
« وما تدري نفس بأي أرض تموت »

واقترق الصديقان على مريض ، وكثيراً ما يكون أمر
الحكومة ينقل بعض (موظفيها) — هو أمرها بتمزيق بعضهم
من بعض ؛ ثم تصرفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق
لا يلتقيان ، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذي مضى ،
يحفظ ولا يرى

قال المحدث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل في
السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شاب لم يبلغ
من العمر إلا سبعين سنة ... ويزعم أن في جسمه الناموس
الأخضر الذي يحيي الشجرة حياة واحدة إلى الآخر

رجل فاره ، متأنق ، فاخر البزة ، جميل السميت ، فارغ
الشطاط^(٢) كالصوب في قالب لا عوج فيه ولا انحنا ، مجتمع
كله لم يذهب منه شيء ، قد حفظته أساليب القوة التي يمانها
في رياسته اليومية . وهو منذ كان في آنفسيه وشبابه لا يمشی

(١) أي المكان الذي اجتمعا فيه بعد التفرق (٢) عند الطول

قال : فتعاصرت الشيخان ، ثم قال (م) : يا بني هذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها ، فعى كتبتك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى

قلت : ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كل شاب في هذه الجاهلية الأولى ، وما أحسب (رينا ، وريت) في لغتك التسبعة إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) في اللغة الحديثة ؟

فقال (م) : اسمع يا بني . إن رجل سنة ١٩٣٥^(١) متى سأل في رجل سنة ١٨٩٥ : ما معنى رينا وريت ؟ فرد عليه : إن (رينا) معناها (كارينا) ؛ وكان (ن) بها سباً مفرماً ، وكان مُقْتَتَلاً قتلته حبها . أما (ريت) فهو لا يعرف معناها

فامتعض المجوز (ن) وقال : سبحان الله ، اسمع يا بني ! إن رجل سنة ١٨٩٥ في يقول لك : إن (ريت) معناها (مرغريت) وكانت الجوى الباطن ، وكانت اللوعة والحريق الذي لا ينطق في قلب الأستاذ (م)

قلت : فأنا أيها المجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ فكيف تريان الحب الآن ؟

قال المجوز (ن) : يا بني إن أواخر العمر كالنفي . . . ونحن نتكلم بالألفاظ التي تتكلم بها أنت وأنا وأنتم . . . غير أن اللماي تختلف اختلافاً بعيداً

قلت : واضرب لهم مثلاً
قال : واضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل) فلها عندنا ثلاثة معان : الأكل ، وسوء الهضم ، ووجع المعدة . . . وكلمة (الشيء) فلها أيضاً ثلاثة معان : الشيء ، والتعب ، وغمزات العظم . . . وكلمة (النسيم) ، النسيم العليل يا بني : يزيد لنا في معناها تحرك (الرومازيم) . . .

فضحك (م) وقال : يا «شيخ» . . .
قال المجوز : وتلك الزيادة يا بني لا تنجيء إلا من نقص ، فهنا بقية من يدين ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ومن ومن ، ومجموع كل ذلك بقية من انسان
قال الأستاذ (م) : والبقية في حياتك . . .

يدوران ويتطوَّحان ، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظامنة لا عهد لي عثلها في صديقين ، حتى نحيل إلى أنهما لا يتماقتان ولا يتلاثمان ولكن بينهما فكرة يعتنقانهما ويقبلانهما معاً . . .
وقلت : ما هذا أيها المجوزان ؟

فضحك (م) وقال : هذا صديق القديم (ن) تركته منذ أربعين سنة معجزة من معجزات الشباب ، فما هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمه . . .
ثم التفت إليه وقال : كيف أنت يا رينا ؟

قال المجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى ؛ زاد العمر في رجلي رجلاً من هذه العصا ، ورجع مصدر الحياة في مصدر الألام والأوجاع ، ودخلت في طبيعتي عادة رابسة من تعاطي الدواء

فضحك (م) وقال : فيح الله هذه الدخيلة ، فما هي العادات الثلاث الأصلية ؟

قال المجوز : هي الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت يا ريت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرأها كما يقرأها الناس ، فاسؤالك عن هذا ؛ وهل تقرأ الصحف يوماً غير ما تقرأ في يوم ؟

قال : آه ! إن أول شيء أقرأ في الصحف أخبار الوفيات لأرى بقايا الدنيا ، ثم (اعلانات الأدوية) . . . ولكن كيف أنت يا ريت ؟ إنني لأراك ما تزال من وراء أربعين سنة في ذلك العيش الرخي ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يجزمك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلسك بأصابه لا بعصاميره ، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم
قال : ناشدتك الله ، أي معجزات العلم الحديث معجزة لعظمي ؟
قال (م) : وبحك يا رينا . إنك على المهدي لم تبرح كما كنت منزلة أفكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى منزلة بين العظم والخشب . . . ؟

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ثم قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) وما هذه اللغة ؟ وفي أي معجم تفسيرها ؟

(١) كانت هذه القصة في صيف سنة ١٩٣٥ في اسكندرية

يومه الطبيعي ، ويكون التوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها الى مجهودها ، وأكروها على أن تبذل من القوة آخر ما يسع الجسم
قال (ن) : فَنَسَمَ إِذْنُ ، ولَمَنِ اللهُ بِمَعَانِي الضَّعْفِ . كَدَتِ
وَاللَّهُ أَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًا ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مَتَوْحَشًا تَخَافُ
أَنْ تَوَكَّلَ فَتُظَلَّ شَيْخًا رَجُلًا لِشَيْخَا طِفْلًا ، وَتَرَى الْعَمْرَكَ يَرَى
الْبَخِيلَ ذَهَبَ مِمَّا يَبْلُغُ فَكَثْرَتُهُ غَيْرَ كَثِيرَةٍ

قال المحدث : وأخبرني حوارهما إذ لم يمد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان بتكلم ويقص ويعطف وينتقد ، ولن يكون الشيخ معك في حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة . فقلت لها : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ . . .

للنزهة والرفق

(لها بقية) (طنطا)

إلى م . م . ش : يا بني إن الزبال يتزوج ويعيش ويبسأ ما دام في طبقته وحقته ، فإذا خرج من هذه الطبقة وتسامى عن هذه الحقيقة وقال سأنتظر ، بقي طول عمره ينتظر . وكل شاب عزب تراه فهذه علته : زبال يطمع في بنت أمير . . . وهو لا يدري أنه زبال . ينتظر العصفور حداة ، أتصغر الحداة أم يكبر العصفور . . . ؟
الرائي

أصدرت مكتبة الجيب

الرحيل

رجل

لمحمود البدوي

من القصص التعليلية الرابع

وتطلب من مكاتب القاهرة الكبرى

وثن الكتاب قرشاً

عند أجرة البريد

قال (ن) : وبالجملة يا بني فإن حركة الحياة في الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتي الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب في مفاخرته : ليحس الزمن ولتصرم الأيام ، فإن الأيام هي التي تتصرم والزمن هو الذي يمر . أما الشيوخ فلن يتمتوه أبداً . فن قال منهم : ليحس الزمن فكأنما قال فلأَمْضُ أنا . . .
فصاح (م) : يا شيخ يا شيخ . . .

ثم قال العجوز : واعلم يا بني أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم فيصبح مثله ضعيفاً لا غناء عنده ولا حيلة له ، وكل مصانع لتكثير ومضانع بنك مصر واليابان والأمريكيتين ، وما بقي من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها فهي عاجزة أن تكسو عظامي . . .

قال المحدث : فقهمة الاستاذ (م) وقال : كدت والله أتخشب من هذا الكلام ، وكادت معاني العظم تخرج من عظامي . لقد كان التوحشون حكاء في أمر شيوخهم ، فإذا علت السن بجماعة منهم لم يتركهم أحياء إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهزة فيكروهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلوا منها وقد علقت أيديهم بأغصانها ؛ فإذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجونها وينفضونها ساعة من نهار ؛ فن ضعفت يداها من أولئك الشيوخ أو كلت حوامل ذراعيه فأقلت التصن الذي يتعلق به فوقه ، أخذوه فأكلوه . ومن استمسك أنزلوه فأملوه إلى حين فأقصر العجوز (ن) وقال : أعوذ بالله هذه شجرة تخرج في أصل الجحيم ، ولها الله من حكمة ، فانما يطبخونهم في الشجرة قبل الأكل ، أو هم يحملونهم كذلك ليتوهمهم طيوراً فيكون لحمهم أطيب وألذ ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حاتم وعصافير
قال (م) : إن كان في الوحشية منطق فليس في هذا المنطق « باب لم » ، ولا (باب كيف) ، ولو كان بهم أن يأكلواهم لأكلواهم ، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة ؛ فإن رؤية الرجل هذه الشجرة رهزها وعاقبها يمد عنه الضعف والتخلخل ، ويدفنه إلى معاناة القوة ، ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة وطعمها فيها وتنشط لأسبابها ، فيكون ساعده آخر شيء يهرم ، ولا يزال في الحدة والنشاط والوثيان ، فلا يمجز قبل